مقتطف

يتكيّف الفرد مع ثقافة الخوف، ويصبح غير واعٍ بقلقه وينسدل على عينيه حجابٌ يمنعه من الرؤية. هذا الحجاب يمثّل الانتصار النهائي للدكتاتورية. وكما هو الأمر مع وحوش الغابة التي تسحر الضحية قبل أن تقضي عليها، يسحر النظام الديكتاتوري الفردَ ويُسكِر عقله، فيرى واقعاً موهوماً يجد وصفه في البروباغندا الرسمية

بين الجرائم والسرابات

مأزق مترجم في وصف المفتاح الذهبي لانتصاراتنا

بسنيك مصطفاي

بسنيك مصطفاي

زارَ سائحٌ فرنسي قريةً في ألبانيا. انطلق رئيس مجلسها الشعبي، بكلّ حماس، يشرح التحوُّلات الجذرية التي جرت في القرية تحت زعامة الحزب والرفيق أنور خوجا، وانتظر بعد ذلك أن يُعبّر هذا الصديق القادم من بعيد عن إعجابه. وكان مستغرباً أن يبقى الفرنسيُّ واجماً دون أن ينطق بأية كلمة. اضطرَّ حينئذٍ المُضيف أن يسأل المترجم عمّا يجعل هذا الأجنبيَّ يبدو في مثل هذه الحالة.

- دع هذا المسكين في حاله! لا تنكأ جراحه! إنه يستذكر بلاده التي سقطت في البؤس بسبب الرأسمالية، أجابه المترجم.

- قُل له ألّا يغتمّ لذلك. يُمكن أن يُفكّر ويُبادر مع بعض أصدقائه لتأسيس حزب شيوعي، ولن يُقصّر حزبنا في مساعدتهم. يمكن لشعبه أن يبني المستقبل فقط بالسير حسب أفكار ماركس وإنغلز ولينين وستالين والرفيق أنور. وحينئذٍ، سيرى كيف أنّ باريس ستزدهر مثل قريتنا.

كان رئيس المجلس الشعبي متأكّداً بأنّه يُقدّم للضيف النصيحة المناسِبة التي ستخفّف من سَخطه.

هكذا كانت تُروى هذه النكتة في ألبانيا منذ بداية الثمانينيات، حين كنتُ طالباً في الجامعة. ربما كانت مفبركة، ولكن الشخصيات فيها حقيقية. وإذا استخدمنا أحد المصطلحات المفضّلة في الدعاية الشيوعية، لقلنا إنّ القروي يمثل بشكل دالّ على الإنسان الجديد الألباني الذي فبركته بالتدريج خلال 45 سنة الماكينة المخيفة لدولة ديكتاتورية البروليتاريا. لا يوجد شك في أن حماس رئيس المجلس كان صادقاً، كما كان الأمر مع قلقه من برودة الصديق القادم من بعيد أمام الواقع العظيم لبلاده. كان غمر ومنصب رئيس المجلس يسمحان بأن يتمتّع بمستوى سياسي وثقافي متوسّط بالنسبة إلى بلاده. لنتخيّل لو أنّ السائح سأله عمّا يعرفه عن العالم، لكان أجابه كما يلي:

العالم ينقسم الآن إلى قسمين سياسيَّين متصارعَين.

في القسم الأول، تدخّل الدول الرأسمالية في أوروبا وأميركا وأفريقيا وآسيا بزعامة الولايات المتّحدة. ومع نهاية الخمسينيات، حين وصل إلى السلطة خروتشوف وتمكّن حزبنا مع الرفيق أنور من كشف قناع الخيانة، دخلت في هذا القسم أيضاً دول المعسكر الاشتراكي السابق، التي فتحت الطريق لانحطاط السلطة الشعبية. وعلى رأس هذه الدول الاتحاد السوفييتي الذي يقوم بدور الدركي وليس بدور الأوّل بين المتساوين. سواء في الشرق أو في الغرب تعيش الشعوب في بؤس، حيث تُضطهد وتُستغل بشكل بربري، بينما تعيش أقلية صغيرة، حوالي 0,01% من السكان، في بذخ أسطوري.

أمّا القسم الآخر، الذي ينحصر الآن في مساحة 28 ألف كم ويعيش فيه 3 ملايين نسمة للأسباب المذكورة في تحليلات حزبنا ومؤلّفات الرفيق أنور، فهو أهمّ قسم في الكوكب. في هذا المجال ألبانيا، البلد الوحيد الذي يحكم فيه الشعب. وحسبما قال في موسكو خلال تشرين الثاني/ نوفمبر 1960 أنور خوجا، الابن الأعزّ للشعب ومهندس ألبانيا الحديثة، فإن الشعب الألباني يفضّل أن يأكل الحشيش على أن يخون الشيوعية. وبفضل دفاعه عن هذه المبادئ الخالدة، فإن ألبانيا اكتسبت مكانة فريدة في نظر الشعوب المحبّة للسلام في العالم. لقد تعهّدت ألبانيا أمام التاريخ، مع حزبها بنظرته البعيدة وقيادة الرفيق أنور، أن تحافظ على أجمل حلم للإنسانية: الشيوعية. ولذلك فإنّ شعوب العالم، تعبيراً عن تقديرها للدور المرشد للمستقبل الذي يقوم به الحزب الشيوعي الألباني، تطلق عليه: صوت الحقيقة.

ولحسن أكبر تقدير يحظى به الحزب والرفيق أنور هو بين الشعب الألباني. إنّ هذا التقدير يعبر عن نفسه سياسياً بشعار: «نقول للحزب والرفيق أنور نحن مستعدّون دائماً!»، ويرد الحزب على ذلك بشعار صاغه أنور: «ما يقوله الحزب يصنعه الشعب، كل شعب يصنعه الحزب». إنّ هذا الشعار الذي صاغه الرفيق أنور يعبّر بشكل رائع عن الوحدة المتينة بين الحزب والشعب، التي هي المفتاح الذهبي لكل انتصاراتنا كما يقول الرفيق أنور.

ومن الطبيعي، في هذه الحالة، أنّ الفن أيضاً يجب أن يستلهم حياة وأعمال أنور خوجا العظيمة. وهكذا كُتبت آلاف الأبيات وصُرفت فريدة في نظر الشعوب المحبّة للسلام في العالم. لقد تعهّدت ألبانيا أمام التاريخ، مع حزبها بنظرته البعيدة وقيادة الرفيق أنور، أن تحافظ على أجمل حلم للإنسانية: الشيوعية. ولذلك فإنّ شعوب العالم، تعبيراً عن تقديرها للدور المرشد للمستقبل الذي يقوم به الحزب الشيوعي الألباني، تطلق عليه: صوت الحقيقة.

في الحقيقة، لم تُصدر اللجنة المركزية للحزب أيّ أمر حول ذلك، لأنه لم يكن هناك داع لذلك. في الأنظمة الدكتاتورية هناك وسائل لوضع أنظمة غير مكتوبة، وحتى أنّ مثل هذه الأنظمة غير المكتوبة تُحدّد حياة المجتمع أكثر من القوانين. إنّ هذا يجعل الفرد يشعر بأنه في حاجة إلى حماية، وهو ما كان يؤدّي لديه إلى خلق سيكولوجية خاصة تتحكّم فيها ثقافة الخوف التي يتكيّف معها الفرد، ويُصبح بشكل متزايد غير واعٍ بقلقه ويُنسدل على عينيه حجابٌ يمنعه من رؤية ومحاكمة الأمور. إنّ هذا الحجاب يمثّل الانتصار النهائي للدكتاتورية. وكما هو الأمر مع وحوش الغابة التي تسحر بنظرها الضحية قبل أن تقضي عليها، كذلك يسحر النظام الديكتاتوري الفرد دون أن يشعر ويُسكِر عقله. وهكذا عوضاً عن الواقع الموجود حوله، يرى واقعاً موهوماً يجد وصفه في البروباغندا الرسمية.

إنّ هذه «السكرة الدماغية» تُصيب كاملةً لدى قسم من الشعب، ولا ينجو منها أيُّ قسم من الدماغ يمكن أن يبقى فاعلاً لكي يحاكم الأمور بشكل منطقي في الحد الأدنى. ولتخيُّل ما وصلت إليه مثل هذه «السكرة الدماغية»، يمكن أن أسوق مثالاً: من بين عشرات الآلاف من المحكومين سياسياً في ألبانيا خلال سنوات الديكتاتورية لا يوجد سوى قلائل اعترفوا بالاتهامات الموجّهة لهم كمعارضين للنظام. ولو تصفّحت ملفّات هؤلاء لوجدت أقوى القسم باليمين للولاء تجاه الحزب وأنور خوجا. وحتى من بين هؤلاء ، الذين حُكم عليهم بالسجن بين 15 و25 سنة أو الإعدام، نجد أنه عوضاً عن إصرارهم على براءتهم وإدانتهم للعنف ضدّهم كانوا ينادون: «عاش الحزب» و«عاش الرفيق أنور خوجا»!

مقابل هذا الانهيار الذي لا يمكن تخيّله من الخارج، أو من زمن آخر، كان إنشاد أغنية «أنور خوجا، عمراً مديداً» في كلّ المناسبات العامّة يبدو طبيعياً. إنّ هذه الأغنية دون شك أفضل مثل للتمجيد البليغ لديكتاتور، إذ تُعبّر عن جنون العظمة لديه كما يبدو في هذا المقطع:

«تقول الشعوب في العالم:
هناك نجم ساطع فوق أوروبا،
ومن هذا النجم الموجود في ألبانيا
طوبى لمن يشع عليه هذا النجم».

(مقدمة كتابه «بين الجرائم والسرابات».
ترجمة عن الألبانية: محمد م. الأرناؤوط)

في الأنظمة الدكتاتورية هناك وسائل لوضع قوانين غير مكتوبة

هكذا كانت تُروى هذه النكتة في ألبانيا منذ بداية الثمانينيات

الربيع الالباني ومآلاتُه

في كتاب ذكرياته واستشراقاته، «بين الجرائم والسرابات»، يتناول مصطفاي تجربته خلال الحكم الشمولي والديمقراطي الجديد في بلاده، حيث لا يكتفي بوصف معايشته «جرائم» الأول، بل يتناول بجرأة أيضا «السراب» او «السرابات» التي تبيّنت له خلال الحكم الديمقراطي وستجعله يستقيل في 2007 احتجاجا على ما وصل اليه الحال مع حُكم «الرفاق الجدد». صدرت طبعاتٌ عدّة من العمل، وتُرجم الى الفرنسية والالمانية والايطالية.

سيرة

بسنيك مصطفاي Besnik Mustafaj (1958) شاعر وروائي ودبلوماسي ألباني مخضرم برز في العقد الاخير من الحكم الشمولي في ألبانيا - التي كانت آخر «قلعة» للستالينية في أوروبا - بعدّة مجموعات شعرية أولاها «موتيفات فرحة» عام 1978، ثم شارك في الحراك الديمقراطي ضدّ الحكم الشمولي، وكان من المؤسّسين الرئيسيّين لأوّل حزب معارض (الحزب الديمقراطي) الذي نجح في قيادة تفكيك النظام الشمولي بين سنتَي 1990 و1992 وتحوُّل ألبانيا إلى بلد ديمقراطي.

في هذا السياق، شارك مصطفاي في أوّل انتخابات ديمقراطية عام 1991، وأصبح نائباً في أوّل برلمان ديمقراطي في البلاد، ثم سفيراً لألبانيا الديمقراطية في باريس عام 1992، ثمّ وزيراً للخارجية في 2005، إلى أن استقال من الحكومة والحزب احتجاجاً على ما آل إليه الأمر مع «رفاق الأمس»، وتفرّغ تماماً للأدب.

في غضون ذلك، أصدر في 1995 روايته «ملحمة صغيرة» التي تناوَل فيها تجربة السجن في ألبانيا. حقّقت له الرواية شهرةً واسعةً بعد أن تُرجمت إلى الفرنسية والإيطالية والألمانية، وقد صدرت مؤخّراً بالعربية أيضاً (عمّان 2021) بترجمة إبراهيم فضل الله. كما صدرت له عدّة روايات أُخرى ليمثّل بذلك الجيل الجديد (بعد إسماعيل كاداريه) الذي قدّم صورة مختلفة عن الأدب الألباني المتحرّر من كوابيس الحكم الشمولي.

إطلالة

زمن الرواية وزمن السلطة

معدوح عزام

تَعتبر السلطةُ، في عالمنا العربي، أنَّ التاريخ هو كلُّ زمن مضى قبل أن يستلم رجالُها الحكم، ولا ترى مانعاً في الكتابة عنه، وأنَّ الحاضر، هو الزمن الذي تحكم فيه، مهما امتدّ هذا الزمن، أو قصُر. وترى أنّ كلّ من يكتب عن هذا الزمن إنّما يكتب عن حاضرها، وسوف تتمّ محاسبة الرواية بالمنع من النشر أو من التداول إذا ما كانت تُقدّم روايةً مختلفةً أو معارضة لرواية السلطة عن هذا الحاضر.

وبهذا، فهي تُعلن ملكيتها للزمن، بعد أن أعلنت أنّها تملك المكان أيضاً. وهنا، فقط، يبدو الماضي والحاضر والمستقبل أيضاً بلا حدود، إذ يُمكن أن يستمرّ الحاضر عشرات السنين بحسب الزمن الذي تستطيع أيُّ سلطة أن تحافظ على بقائها في الحكم، بينما يُمكن أن يُصبح الماضي تاريخاً حتى لو كان قد حدث بالأمس، في حال انقلاب الحُكم أو زواله لصالح مجموعة حكم أُخرى. وإليكم الأمثلة: لم يستمر عهد حسني الزعيم في حكم سورية سوى بضعة أشهر، سقط بعدها، وأعدم، وبات عهده كلّه ماضياً، أي تاريخاً، واستمرّ عهد أديب الشيشكلي خمس سنوات، وعهد الوحدة ثلاث سنوات، بينما يستمر عهد البعث منذ عام 1963. وفي كلّ تعاقُب للحكم، يجري وضعُ الماقبل في الماضي، أو يجري حسابه ضمن التاريخ، باستثناءات قليلة ومناسبة للمقبول، وبالمقابل يوضَع العهد الجديد كلّه في الزمن الحاضر. كلّ حكم يرغب في إيقاف الزمن. يصادر الماضي، ويجعل الحاضر أبدياً، وبلا نهاية.

وبينما تُعلن السلطة امتلاكها للحاضر، فإنّها تمنع الكتابة عنه مرّةً أو مرّات وتُصادر الحقّ والنص معاً، أو تُصادر أحدهما حيثما استطاعت، أو ترغب في أن تكون الكتابة محكومة بمفهومها عن الزمن الذي هو زمن الحكم. فكلّ سلطة ترى أنّ زمنها دائمٌ وغير قابل للنقض أو الحدود، وأنّ زمنها وحده هو الزمن الجميل والمنسجم، بينما لا ترى الرواية زمناً مقدّساً، فالكتابة الروائية هي كتابة عن البشر والوجود، عن القيم والعواطف، عن الإنسان في قوّته وفي ضعفه، عن الدلالات الإنسانية، أو اللاإنسانية في الممارسة. ولا يبدو العابر في متنها إلّا بوصفه عابراً، ومنه بالطبع زمن السلطة.

تقول الرواية إنّ زمن السلطة، أيّ سلطة، هو زمن عابر مؤقّت بغضّ النظر عن زمن الحكم. ولا ترتبط أيُّ كتابة روائية بممارسات السلطة بوصفها ممارسة كلّية ودائمة ولا سبيل إلى هدمها أو تغييرها، فالرواية ليست سجلّاً للحُكم وأشكاله بوصفه ديمومة وبقاءً وهيمنة دائمة. فكلّ ما يُكتَب إنّما يُكتَب عن الماضي (ونحن لا نكتب في الحقيقة إلّا عن اللحظة الفائتة بصرف النظر عن قربها أو بعدها عنا) لا عن الحاضر؛ فالحاضر ليس سوى لحظة تصل ثم تذهب بلا رجعة، والمسألة هي أنّ السلطة هي التي تُحدّد الساحة التي تسمّيها حاضراً أو ماضياً (ويمكن أن تُطلق عليه اسم التاريخ كي تتخلّص من ارتباطه بالزمن) أو مستقبَلاً فيما لو كانت الرواية تضع تفصيلاً متخيّلاً للمستقبل، بينما تكسر الرواية تلك الأوامر والمحدّدات.

(روائي من سورية)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

كما هو الأمر مع المخلوقات التي تنمو تحت النور الاصطناعي

مهمّة التعريف بالتقدُّم العظيم في البلاد

لم يكُن لوجه الاجنبي الابيض الناعم، بالنسبة الى الالباني، تفسيرٌ آخر سوى انه شاحبٌ بسبب سوء التغذية، او انّه دليل على مرض سيّئ

مصطفاي في مطلع الثمانينيات

إذا عُدنا إلى النكتة المروية سابقاً، يبدو أن اثنَين (رئيس المجلس والمترجم) من الشخصيات الثلاثة هما من المواطنين المحظوظين بالعالم في نهاية القرن العشرين، لكونهما نشأا تحت نور هذا النجم. وربما كانا في عيون الأجنبي يشبهان كائنين غير طبيعيين لا يختلفان عن بعضهما في الجنون، كما هو الأمر مع المخلوقات التي تنمو تحت النور الاصطناعي. ولكنهما لم يكونا تماماً متماثلين. كأن بينهما فرقٌ آخذ يتعاظم مع مرور السنوات حتى جعل كلّ واحد في مواجهة الآخر. ولنقدّم هنا عرضاً مختصراً عن كل واحد منهما:

كان القروي المتمتّع بالسلطة يتجاوز الخمسينات من عمره. يبدو نحيفاً تَظهر منه العظام مع ساقَين نحيفتَين ومتقوّستين لا تنضمّان جيداً تحت البنطال الصوفي، الأسود، الذي لا يشعر به في عز الصيف. أمّا كتفاه الصغيرتان والمكتنزتان، اللتان تُخفيان بشكل يدعو إلى العجب صدره المستوي، فتغطّيهما سترة عسكرية بهت لونها من استعمالها الطويل، وقد نُزع منها ما يشير إلى كونها سترة ضابط.

كان يُغطّي رأسه الصغير ذا الشعر القصير بقبعة غامقة اللون، وهي عادة موروثة للتشبّه قليلاً بأعضاء قيادة الحزب في المنطقة، الذين يلتقي بهم في الاجتماعات الكثيرة في المدينة. عيناه كانتا غائرتَين في الداخل وتبدوان أصغر، وبذلك لم تكُن تساعد على إضفاء حيوية على وجهه القاتم للغاية بسبب وقوفه الطويل تحت الشمس وفي أسوأ الأحوال. كانت نظرته إلى وجه السائح تتّسم بالعطف. كان الوجه الأبيض الناعم للأجنبي بالنسبة إلى الألباني الذي بلغ الخمسينات ليس له تفسير آخر سوى أنه شاحبٌ نتيجةً للغذاء السيئ وغير الكافي، أو أن هذا المظهر دليل على مرض سيئ أصيب به، الذي لا يملك المال الكافي للعلاج لكونه ضحية للاستقلال الرأسمالي البربري. كاد أن يعرض على ضيفه القادم من بعيد أن يقبل بتبرّعه بالدم له، دون أن يتخيّل أن الضيف كان في الوقت نفسه لديه التفكير ذاته عنه؛ فلون جلده وشكلُ وجهه كانا كافيَين للأجنبي لكي يفهم أيّة حياة يعيشها هذا القروي السعيد.

كان المترجم بعمر الابن الأصغر للقروي. كان في السنة الأخيرة بكلية اللغات الأجنبية، وكان لديه شعور متزايد بصعوبة دور الوسيط بين بلاده والأجانب. فأبناء بلاده يطالبونه بأن يُعرّف وطنهم بأحسن حال. إنّ هذا يعني أن يروي للأجانب فقط التقدُّم العظيم في البلاد، وهي بالنسبة للمترجم مهمّة أخلاقية ووطنية ووظيفة رسمية لدى الدولة، ولذلك إذا قصّر في أدائها ينتهي الأمر به إلى رجال الأمن.

... مصطفاي

فعاليات

في **غاليري كاف للفنون** بيروت، يُفتتح عند السادسة من مساء اليوم معرض يضمّ لوحات للفنان التشكيلي اللبناني **إلياس أيوب** (1986) بعنوان **Balanced life**. تمثّل الشخصيات البشرية العنصر الثابت في لوحات أيوب، وهي تحضر في الغالب في وضعيات غير متوقّعة ضمن مناخات حُلمية وعجائبية.

تنظّم **الجمعية التونسية للدراسات التاريخية**، يوم غد السبت، في مقرّها بتونس العاصمة محاضرةً بعنوان **المتوسّط في تاريخ المغارب** يُلقيها أستاذ التاريخ في الجامعة التونسية **لطفي عيسى** (1958). من أبرز مؤلّفات الباحث التونسي: «مميّزات الذهنيات المغاربية في القرن السابع عشر» (1994)، و«مغرب المتصوّفة» (2005)، و«كتاب السيَر: مقاربات لمدونات المناقب» (2007).

تنظّم مؤسّسة **بيت تونس** في باريس، يوم الاحد المقبل، 28 تشرين الثاني/ نوفمبر الجاري، حفل إطلاق الألبوم الجديد لعازف العود التونسي **إحسان العربيي**، والذي يحمل عنوان **آفاق**. يحتوي الألبوم على تسع مقطوعات، وهو الألبوم الموسيقي الثاني الذي يُصدره العازف التونسي بعد «ريحانة».

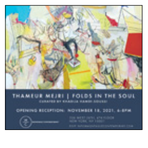

منذ 18 تشرين الثاني/ نوفمبر الجاري، يُقام في **غاليري مونتاغ كونتومبروري** بنيويورك معرض لأعمال الفنان التشكيلي التونسي **ثامر ماجري**. تمثّل ثورة 2011 واحدة من أبرز ثيمات ماجري، حيث ينقل الكثير من مناخاتها ومفاهيمها في أعماله بشعارات الكرامة وانفلات العنف وتحوُّل علاقة الدولة بالشعب.